الفصل الخامس عشر

الآداب العائلية

لم يكن الإكثار من الكلام في كيف ينبغي أن تكون العائلة ليمنعنا من تخصيص فصل آخر بالكلام، ولو بإيجاز واختصار علي الآداب العائلية. فإننا كما تقدم لنا القول في الأجزاء السابقة لا نبرئ آدابنا العامة من المغامز، والمعايب.

ولسنا نتعمد الدلالة علي كل عيب ومغمز في آدابنا العامة، فإنه أمر يطول شرحه، ولا تكفيه عدة صفحات من هذا الكتاب، فلذلك نأخذ الأمر بجملته علي رجاء أن لا يرى أحد فيما نكتبه ونشير إليه من هذا القبيل سوي توخي الخدمة العامة، والتماس وجوه الإصلاح.

تقدمت لنا في الفصل السابق إشارة إلى أن الهيئة العائلية في الشرق تكاد تكون اسما لغير مسمى، وقلنا أن الرجل في مجلس، والمرأة في مجلس، والأولاد بين المجلسين. ولهذه الحالة كما لا يخفى علي الناقد البصير نتائج وخيمة، وأضرار جمة؛ لأنها تنجلي عن ضياع التربية ضياعا تاما. وذلك أن الأولاد إذا لم يكونوا في الصغر تحت نظر والديهم، أو في عناية مربيهم مع مراقبة الوالدين لهم بحيث يشعر الولد بأن أعين أبيه وأمه ترعاه علي الدوام، خرج عادما كل صفة جيدة وإحساس شريف.

ولعمري أي رادع للولد عن الكلام البذيء، وعبارات السفاهة، وألفاظ التجديف، وعن النميمة، والكذب، والغش، والاحتيال إذا لم يكن عالما بأن

عليه من أبيه وأمه حارسين يرقبان حركاته، وينصتان إلى كلماته، فيكافآنه إذا أحسن، ويعاقبانه إذا أساء.

ثم كيف يجري الولد علي المثل الصالح ويقتدي بالصنع الحسن إذا لم ير المثل أمامه، وصنع أبيه يتقدم صنعه. ومعلوم أن الولد يجب أن يكون لديه ما يقتدي به، فإذا أخرج من مجلس أبيه وأمه لينشأ في مجالس الخدم والغرباء لم يكن أمامه إلا كل مثل غير صالح.

ثم من يعلم الولد أن هذه الكلمة قبيحة فلا يستحب أن يقولها، وأن تلك العبارة معوجة سقيمة فينبغي له أن يصلحها، وأن ذلك الرأي خرافة ووهم فلا يصح أن يعتقد به. ومن يعلمه كيف يسلم علي من هم أكبر منه؟، وكيف يخاطبهم ويجلس في حضرتهم، وكيف يجلس للأكل ويتناول الطعام، وكيف يحمد الله علي ما أسبغ من النعمة، ويشكره علي ما أبعد من النقمة، وكيف يتهيأ للنوم، وكيف يلزم في كل هذه الأحوال جانب النظافة التامة إذا لم يكن يري المثل من أبيه وأمه؟

بل من يوضح للولد ما أشكل عليه فهمه مما يعرض من الأمور، ويفسر له الكلمة التي لا يفهم معناها، ويشرح له المسألة التي لا يدرك فحواها إذا كان أبوه في مجلس وأمه في مجلس، وهو بين المجلسين لا في هذا ولا في ذاك؟

لا بل كيف يمتنع الرجال أنفسهم عن إيراد القصص السافلة، وسرد الحكايات التي حشوها الكلام البذيء، والتفكه بالأقوال التي يخدش وقعها الآذان وتحمر لسماعها الوجوه إذ لم يكن في المجلس من النساء، أو الأولاد من يتجافي الرجل عن مثل ذلك أمامهم.

ولا ينكر علينا أحد أن في وجود امرأة واحدة. أو ولد صغير واحد في

مجلس يضم عشرين، أو ثلاثين رجلا كفاية لتقييد ألسنة أولئك العشرين، أو الثلاثين عن التفوه بكلمة واحدة غير لائقة، ولغل أيديهم عن الإتيان بإشارة واحدة خارجة أقل خروج عن ظل الآداب. فلماذا إذا نعمل نحن بأيدينا علي تهديم السياج الذي يقي الآداب العائلية من الضياع، ونسعي بقدمنا إلى الوهدة التي تهوي فيها الفضائل والكمالات، وذلك بأن نكون نحن في مجلس، ونساؤنا في مجلس، وأولادنا ضائعون بين المجلسين.

ونحن نضرب لذلك مثلا شهدناه بنفسنا: وهو أن رجلا من علماء الفقه في بيروت كان يلقي دروسا في حلقة لم يكن يحضرها غير الرجال، فكان متى طرق باب الزواج، والطلاق، وغيرهما من أمثال هذه الأمور لا يسمى الأشياء إلا باسمها، بل كان يذكرها باقبح أسمائها دون أن يكلف نفسه عناء استبدال كلمة تحسب سفيهة، وإن كانت في وضعها تفيد المعني بكلمة غير خارجة عن حدود الأدب، وهي تفيد المعني بتمامه. فلما سئل في ذلك أجاب: وممن تراني استحي، ألست في حلقة رجال؟

ثم لم يمض علي ذلك زمن طويل حتى استدعى الأستاذ إلى إلقاء دروس في الفقه في منزل أحد الأغنياء لتعليم ولدين له كانا في غرة صباهما، وكانت والدتهما تحضر الدرس. ولا تسل عن ارتباك المعلم في بادئ الأمر، وتلعثم لسانه، وذلك أنه كان قد ألف إلقاء الكلام علي عواهنه دون التدبر، وإعمال الروية، وانتقاء الألفاظ في التعبير؛ لوجوده دائما في حلقة من الرجال. فلما جيء به لتدريس فتيين صغيرين في حضرة امرأة، رأي نفسه مضطرا إلى محاسبة نفسه علي كل كلمة تدور علي لسانه وتخرج من بين شفتيه.

إذن فوجود النساء والأولاد في مجالس الرجال شكيمة لهم، رادعة عن كل ما لا أثر فيه للأدب، وكان بعيدا عن جمال الفضيلة والكمال.

فلذلك كان من الواجب علي رؤساء العائلات عندنا أن يجعلوا مجالسهم مجالس عائلية، يرأسها الأب، وتخضع فيها المرأة والأولاد خضوعا مجازيا أدبيا؛ إذ أن العائلة –كما قال تين الفيلسوف الشهير– تقوم بعاطفة الخضوع، والطاعة من قبل المرأة والأولاد في سياسة الزوج والأب.

وهل يعتب السيدات ويحنقن علي مؤلف هذا الكتاب فيقمن عليه القيامة كما فعلن مرة "بثعلبة" حين قال لهن الحق علي صفحات الأهرام في السلوك الذي يسلكنه، والتربية الفاسدة التي يجري بعضهن عليها، إذا قال لهن هنا: أن مجالسكن أيتها السيدات المصونات لا تخلو إذا خلت من الأولاد والرجال من مغامز لا تليق بربات المنازل، ولا تتنزه عن عبارات لا يجوز أن تجري علي ألسنة أمهات البنين.

وليس من ينكر علينا أن النساء كالرجال، فكما أن الرجال لا يعقلون لسانهم، ولا يضعون شكيمة لجماح تصوراتهم إذا كانوا علي خلوة وانفراد في مجلس لا يري فيه ذوي الشوارب واللحى، فكذلك النساء يطرحن برفع الحياء الكمالي، ويردن دون حساب موارد الخفة في الحديث والتصورات إذا خلت مجالسهن من الرجال والأولاد.

ونحن لا تلقي القول في هذا الموضوع علي علاته دون تجربة ولا اختبار، ولو شئنا أن نورد عليه الأمثلة والأدلة لما عدمنا ألف مثل وألف دليل يثبت صحته، ولكننا نكتفي باستشهاد الرجال والنساء، وشهادتهم حق. فليقل لنا الرجال هل يقدمون علي أحاديث المجون السافلة إذا كانت نساؤهم بينهم؟. ولتقل لنا النساء هل يجرؤن علي التلفظ بكلمة خارجة عن حد الحشمة والأدب أمام رجالهن، أو أحد أولادهن الصغار. معاذ الله أن يكون الجواب نعم نقدم، ونعم نجسر. بل نحن نجل عامتنا قبل خاصتنا عن مثل ذلك الإنكار للأدب

الشرقي الطبيعي.

وقد يقول بعضهم وهم لا يفكرون فيما يقولون، أي شر عظيم في أن يخرج المرء في بعض الأحيان عن جادة الجد إلى فسحة المزاح، والمزاح ملح الكلام. ولكن هل تعتبر المزاح المجونية، والأقوال اللفظية، والعبارات البذيئة، والكلمات السفيهة من قبيل المزاح الجائز يا حضر المعترضين.

وهل يجهل أحد، أو ينكر أن مثل تلك الأحاديث تكون أعظم عوامل الفساد، وأضمن الوسائل المؤدية إلى ضياع التربية؟

لا لعمري إنه ليس من يجهل ذلك، ولا من ينكر حقيقته، وهو خلل عظيم في هيئة الاجتماع عندنا ينبغي ملافاته، ونقص كبير في المجتمع العائلي في الشرق يجب إصلاحه.

ومن وجه آخر أفلسنا نري القلوب حتى بين الأقارب والأنسباء، بل بين الأخوة، والبنين، والآباء علي غير ائتلاف ولا حب، حتى أنك قلما تجد عائلة علي رأي واحد، وأخوين علي قلب واحد، بل قلما تجد أبا برا بابنه، وابنًا غير عقوق لأبيه، وأخا مخلصا لأخيه، وابنه مقيمة علي ولاء أمها، وأما تحب ابنتها كما يجب أن تكون محبة الأم. فالخلاف ضارب إطنابه في قلب كل عائلة علي التقريب وحب الذات، مستول علي كل فؤاد دون استثناء، والبغض حال محل الحب والقلب، والجفاء موضع الوداد والولاء.

فما هو السبب في هذه المصيبة الدهماء التي تفرق بين بني الشرق، فتجعل اجتماعهم شتاتا، وقوتهم ضعفا، وعلمهم جهلا، وتمدنهم همجية؟. السبب كل السبب تفرق العائلة، وبالتالي تفرق الحب العائلي، فلا يعرف قلب الأخ أخاه، ولا فؤاد الابن أباه. السبب في ذلك تفرق العائلة بحيث تضيع التربية العائلية

التي هي أساس كل تربية وكل علم يقوم بعدها. فتأتي تربية المدارس علي غير أساس، معرضه للأخطار مثل كل ما يبني علي غير أساس، أو كبيت بُني علي الرمل، فلما عصفت الريح وهطلت الأمطار سقط، وكان سقوطه هائلا مخيفا.

نعرف في الإسكندرية أسرة كبيرة ذات ألقاب رفيعة، وثروة، وحسب، وكان كبيرها متزوجا بامرأتين، ثم توفاه الله عن ثلاثة أولاد ذكور. وجاءت ساعة اقتسام الميراث، فتألب الشقيقان ولدا المرأة الأولي علي ابن الثانية، واتخذا لحرمانه إرث أبيه إلا جزءا صغيرا منه كل طريق ووسيلة، ولو غير جائزة ولا محللة. وقد نجحا في سعيهما لعلة لا نعرفها، وليس من شأننا التعرض لها في هذا الكتاب، وفازا بمعظم الثروة، وأخواهما الآن يتقلب بين مخالب العوز وهما يقولان أنه ليس أخانا، وهو ما نشأ ولا تربى معنا.

نعم إنها حجة، ولكنها واهنة، وأنه لقول ولكنه سفسطة؛ لأن الرجل أخوهما إن لم يكن لأمهما أيضا فلأبيهما، وفي ذلك كفاية، ولكن التفرق العائلي قد انتزع من صدريهما كل عاطفة أخوية، فحسبا غير مباليين هذا الأخ غريبا، وعاملاه معاملة الأجنبي، بل معاملة العدو البغيض.

وإذا كان ذلك هو الشأن بين الأخوة فما الظن بما تكون عليه الحال بين أبناء الأخوة، والأعمام، والأخوال، وسائر الأقارب والأنسباء. بل ما الظن في معاملة الأهالي بعضهم لبعض، وليس ثمت ائتلاف وولاء. اللهم أننا نعوذ بمحبتك للجنس البشري من هذه الشحناء، وإلى كنف انعطافك علي الإنسان نلجأ من هذه البغضاء.

ولسنا نزيد علي ما تقدم شاهدا واحدا، وإن كثرت الشواهد ففي ما سبق إيراده غنى وكفاية، ومنه يتضح لقراء هذا الكتاب أن الاجتماع العائلي ليس فقط حافظا للآداب العامة من الضياع، واقيا للأخلاق من الفساد، بل هو

واسطة التحابب الخالص بين أفراد العائلات، والتعارف الحقيقي بينهم. وحيثما وجدت الاجتماع العائلي علي قواعده وأصوله، وجدت الألفة الحسنة والحب النزيه، بل وجدت النظام، والتدبير، والقوة، والتقدم، والنجاح.

ومما لا نجد بدا من التنبيه إليه في هذا الفصل من كتاب العلم والتربية ما لا يزال شائعا في بلدان كثيرة، وأماكن جمة من هذا الشرق الذي نحب أن نخدمه خدمة نافعة، تنهض به من وهدة التقهقر والانحطاط إلى قمة التقدم والفلاح. ونريد به اعتبار الرجل للمرأة أنها أمة له، مسخرة لخدمته وقضاء مآربه فقط، لا رفيقة له في هذا العمر، وشريكته في هذه الحياة، فلذلك تراه ينزل هذه المرأة التي أوجدها الله لتكون شريكة له، ومدبرة لبيته، ومربية لأولاده، بل أوجدها لتكون ربيعا لحياته، وغره في جبين عمره، وكوكبا لامعا في أفق منزله، منزلة الشيء، والمتاع، والملك الذي يشرى ويباع. فهو يمتهنها متى أراد، وينقص من احترامها، ويشتمها، ويسبها أمام أولادها، بل هو يرفع يده، لا بل يرفع الهراوة، والعصا عليها.

ولعمري أن امتهان المرأة، وسوء معاملتها، والإساءة إليها أمور ذات عواقب وخيمة، وهي قبل كل شيء من أكبر العوامل علي تفريق قلوب الأسرة وتشتيت الجامعة البيتية، بل هي من أقبح ما خدش به وجه الآداب العائلية. لأن البيت الذي تهان المرأة فيه، وتضرب تحت سقفه يخلو طبعًا من عاطفة الحب العائلي، والولاء الزوجي، والاحترام البنوي، وبالتالي من كل العواطف السامية والشعائر الشريفة التي يجب أن تكون شعار العائلات الصغيرة التي تتألف من مجموعها العائلة الكبيرة، ونريد بها الأمة كما تقدم.

ومن طاف بلاد الريف في مصر –ونحن نتمثل ببلاد الريف في مصر كي لا نبعد في المثل كثيرا– بل من أمعن النظر قليلا في قلب الإسكندرية التي يطبع

فيها هذا الكتاب، والتي نسميها أم الحواضر الشرقية، وزهرة المدائن العربية، ورأى كيف تعامل المرأة، وأي مقام لها في الهيئة الاجتماعية يدرك صدق ما نقوله في هذا المعنى؟

وذلك أن المرأة –ولاسيما امرأة الفلاح– تبكر منذ الفجر إلى الخدمة والعمل، فتشتغل في البيت كالخادمة، ثم تعمل في الحقل كالفاعل، وتجري وراء البهائم كالأجير. وهي تزرع، وتحصد، وتطحن، وتعجن، وتخبز، وتخدم حتى البقر والحمير، وأجرتها في أكثر الأحيان سوء المعاملة، والشتم، والضرب بالعصا والإهانة. فحبذا لو قام من كتابنا الوطنيين من يعظ أولئك القوم ويعلمهم أن الرجل مطالب باحترام امرأته؛ لأن احترام المرأة واجب طبيعي وفرض تأمر به الشرائع والقوانين، ويدخل في أذهانهم أن المرأة ذات مقام سام في المجتمع العائلي، وأنها شريكة الرجل ومساوية له، فلا يحق له أن يصول بقوته علي ضعفها وقيمتها، ويطأ بقدم أثرته حقوقها.

بل حبذا اليوم الذي يصبح فيه كل فرد منا نحن الشرقيين وهو ينشد قول الشاعر العربي القائل:

رأيت أناسا يضربون نساؤهم فشلت يمني يوم أضرب زينبا

هذا ويقرب من امتهان المرأة، وإساءة معاملتها، امتهان الأولاد، والقسوة الزائدة في معاملتهم، والغلظة في مخاطبتهم، وإلقاء الكلام الفظ علي أسماعهم، ورميهم بالنعوت القبيحة، والصفات السافلة، إلى غير ذلك مما يجري عليه الذين يرزقهم الله نعمة البنين، فيكفرون بنعمته، ويحسبون الولد من قبيل المتاع كما يحسبون المرأة ملكا يشرى ويباع.

ومما يؤسف له ويبكي من أجله أننا نرى في بلادنا العربية رجالا لا يحسبون

أن لهم أولادا، بل يحسبون ولدهم الذي هو نفخة من روحهم، وقطعة من جسدهم كالحجر، والهرة الشاردة، إن عاش، أو مات علي حد سواء.

بل نرى الحيوان البهيم غير العاقل أكثر حنوًا علي نتاجه منهم علي أولادهم، وأبعد إدراكا وأشد عناية مع ما هو فيه من البهيمية بشؤون الوالدية، ولا ندري علي أي سبب نحمل هذه الحالة، ولا إلى أية علة نرجع بها. ولكننا نعلم أن قلة عناية الوالدين بأولادهم، وعدم فهمهم بسمو المهمة التي ندبتهم إليها العناية يعودان بأسواء النتائج وأشد العواقب وخامة علي الآداب العائلية الشريفة.

وربما تبادر إلى الذهن مما ورد في سياق هذا الفصل من الكلام علي الاجتماع العائلي، واحترام المرأة، والعناية بالولد أننا نحرض الشرقيين علي اقتفاء أثر الغربيين، والجري علي منوالهم في إطلاق حرية الاجتماع، وتجاوز كل حد في الاختلاط بين الرجال والنساء، والمبالغة في توفير المرأة إلى الحد الذي تصبح فيه هي الآمرة الناهية، والإغراق في العناية بالولد إلى أن تبلغ العناية به والانعطاف له حد التدليل الذي نهينا عنه، وحذرنا الآباء منه في أحد الفصول السابقة من هذا الكتاب. كلا ثم أنه الرأي القائل: وأنه لمن وساوس الباطل فإننا من وجه نعلم أنها غاية يستحيل البلوغ إليها مع ما نحن فيه من المذاهب، والتقاليد، والعادات، ومن وجه آخر أننا نكره لتقاليدنا الشرقية، وعاداتنا العربية أن تستبدل بما يخالفها من التقاليد والعادات علي خط مستقيم، وبما هو معها علي طرفي نقيض. ولأحب إلينا ألف مرة أن نرى القديم باقيا علي قدمه من أن نراه مستبدلا بهذا الجديد الذي أودى بالآداب الاجتماعية، أو كاد.

إذن فنحن لا نحض علي إطلاق حرية الاجتماع والاختلاط بين الرجال والنساء، بحيث لا يبقي باب مقفلا، ولا حجاب مسدولا، وبحيث تخرج المرأة إلى

حيث تشاء دون أن تؤدي حسابا للرجل، ويذهب الرجل مع تيار الأهواء دون أن تعلم امرأته بذهابه ومجيئه، بل جل ما نرجوه لهذا الشرق وندعوه إليه أن تتكون فيه هيئة اجتماع سامية شريفة دالة علي علو مقام الشعب، وارتفاع مكانة الأمة، وإغراقها في المدنية والحضارة، وبلوغهما الغاية التي وجد لها الإنسان من إدراك ما له من الحقوق، ومعرفة ما عليه من الفروض نحو قريبه، ونحو نفسه، ومتى بلغنا تلك الغاية السامية: وهي إدراك ما لنا من الحقوق، وما علينا من الواجبات، أصبحنا حينئذ في غنى عمن يضع لنا الحدود لهيئة الاجتماع، ويعلمنا كيف ينبغي أن تكون العائلة، وكيف تكون الآداب العائلية.

فغني عن البيان إذًا أننا لا نقصد فيما نحض عليه وندعو إليه إلى إطلاق حرية الاجتماع كإطلاقها عند الأوروبيين بحيث لا يبقي لهذا الإطلاق حد، بل جل ما نبتغيه ونتمناه لبلادنا الشرقية أن يعود إليها ذلك الائتلاف العائلي الذي كنا نسمع به، وهو قد أصبح الآن أثرا بعيد، حتى أن بعضهم بالغوا في حجاب المرأة حتى حجبوها عن ابن عمها، بل عن أخيها، بل حجبوها عن النسيم مخافة أن يبلغها السلام، أو مخافة أن تطير مع النسيم.

أما توقير المرأة والعناية بالولد فيكفي فيهما أن يعرف الرجل ويعتقد أن هذه المرأة شريكته لا أمة رقيقة له، وأن لها عليه حقوقا تتقاضاه أياها بحق تلك الشركة، كما يطالبها هو بواجبات لا ندحه لها عن أدائها.

فليعرف إذًا مقامها، ويحترم حقوقها الزوجية والوالدية لتبقي المساواة مرعية بينهما، وبذلك يتم نظام المعيشة الزوجية، وتحفظ الموازنة البيتية. ثم أن يعرف أيضا ويعتقد أن هذا الولد الذي رزقه الله إياه مدعو لأن يصبح فيما يأتي من الأيام رجلا مطالبا بأعمال عظيمة: منها خدمة الوطن، ورئاسة العائلة، وإدارة شئون حياته وحياة الموكول أمرهم إليه. وأنه سوف يأتي زمن يطالب هذا الولد

فيه بأن يعول والديه، فهو يعيد لهما في أيام شيخوختهما ما استودعاه أباه في أيام صغره.

ولا مراء في أن الولد يبر بأبيه إذا اختاط أبوه له المثل الصالح، ورسم له الخطة الحميدة، وإلا فبأي حق نطالب الولد برد ما لم نستودعه إياه من الانعطاف والحب، ونسأله أن يعتني بنا ونحن لم نبذل له العناية عندما كان صغيرا، فلا نعتبن عليه إذا عاملنا ونحن شيوخ هزمتنا الأيام بما كنا نعامله به وهو صغير ضعيف، فبالكيل الذي تكيلون به يكال لكم، ومن يشابه أباه فما ظلم.

ولسنا نظن أن مثل هذه الحالة تحتاج إلى دليل يثبت صحتها، لأن ما لا ريب فيه من طبيعته لا يحتاج إلى دليل يثبت صحته؛ لأن ما لا ريب فيه من طبيعته يحتاج إلى شاهد كما قال الشاعر:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ومع ذلك فنحن نضرب لذلك مثلا رجلا عرفناه في الإسكندرية، رزقه الله ولدين أنثي وذكرا فحسب أن حقوقهما كلها عليه أن يأتي لهما بالمراضع، ويرسلهما بعد ذلك إلى المدارس، وأهمل كل أمر آخر من أمورهما، فلا رقيب منه عليهما، ولا اشتغال بحالهما، ولا اهتمام بما يفعلانه في ساعات فراغهما من الدرس وسائر الأعمال.

وكان يتركهما في البيت ويذهب مع امرأته، أو يذهب وحده إلى الملاهي ومحلات المقامرة حيث يبذل ما في جيبه من المال، وفي وجهة من ماء الحياء غير مكترث بمن تركهم وراءه، ولا مهتم بشأن امرأته وأمر ولديه.

وكان إذا سأله صديق عن ابنه يقول ربيته، وعملته في المدارس، فليدبر بعد اليوم نفسه. وفي الحقيقة أن ولديه دبرا نفسيهما، فإن الفتاة علقت بشاب

من غير جنسها ومذهبها، ولما تمكن حبه منها وجاء أبوها يحاول منعها من أن تراه كان جوابها لقد فات الأوان، فأين كنت منذ أشهر وأيام؟. أما فتى هذا الأب الذي يضرب به المثل فإنه كان إذا مرض أبوه لا يعوده كأن ليس له أب والعياذ بالله من مثل هذه الحال.

وعلي الجملة فإن العناية التي نبذلها للولد في أيام صغره أنما هي دين نتقاضاه إياه مضاعفا في أيام شيخوختنا، فمن شاء أن يبر به ولده متى كبر فليبر هو به متى كان صغيرا محتاجا إلى عناية أبيه وانعطاف أمه.

وشهد الله أننا في المسائل الثلاث التي تقدم لنا ذكرها وهي: الاجتماع العائلي، واحترام المرأة، والعناية بالولد لسنا نشير بالتطرف في أحدها، والغلو فيها إلى الحد الذي تعود معه النتيجة بعكس المقصود. بل نحن نريد التوسط في الأمر، فخير الأمور الوسط، فإذا نظرنا إلى الأمر وقابلنا فيه بين حالتنا وحالة الأوروبيين وجدنا كلا الفريقين قد اتبع في مذهبه جانب التطرف والغلو، فإن الأوروبيين أطلقوا حرية الاجتماع والاختلاط بين الرجال والنساء إلى حيث لم يبق لذلك حد يعرف، وبالغوا في توقير المرأة حتى جعلوها آلهة تعبد، وأكثروا من بذل العناية بالولد فأصبح مدللا فاقد التربية. أما نحن فخالفناهم في ذلك كله، وبالغنا في مخالفتهم إلى درجة غير محدودة، فضربنا علي المرأة حجابا صيرها أسيرة، وصير منزلها سجنا، وجعلها في واد والجنس القوي في واد، وأنقص من احترامها حتى لم تعد هي تعرف لنفسها قيمة، وحتى أنكرت هي نفسها مكانتها الزوجية ومنزلتها الوالدية. وأهملنا الولد، أو أسأنا معاملته حتى صار لا يعرفنا، أو صار يعدنا أعداء له. ونحن إذا تدبرنا الأمر وتبصرنا فيه ولو قليلا نجد الشطط والإفراط بالغين حدهما فيما يأتيه الذين تخالف طرائقهم، وفيما نتبعه نحن من مخالفة تلك الطرائق، بحيث لم يبق في الوسط، بل هم تجاوزوا الحد في

إطلاق الحرية، وتجاوزنا نحن الحد في التضييق، وكل ما جاوز حده جاوز ضده، وخير الأمور الوسط.

أما الذين يتخذون من الأوروبيين طرق معايشهم كلها، ويقلدونهم في تمدنهم وحريتهم المطلقة، وهيئة الاجتماع عندهم فقد سابقوهم في هذا المضمار حتى سبقوهم وتركوهم ورائهم بمراحل، فأضاعوا التربية البيتية، والآداب الشرقية، والحياء الجميل، والأنفة الذاتية، والوقار الشخصي، بل أضاعوا الدين، والشرف، والعواطف السامية، كل ذلك بدعوى التمدن والحرية، وحجة مجاراة الأوروبيين في طريق الحضارة العصرية.

وقد كان يجمل بنا أن نفرد هنا فصلا خاصًا تضمنه كل ما يجب من الملاحظات علي هيئة الاجتماع عند الشرقيين الذين يقلدون الإفرنج في معايشهم، فيأخذون منها الفاسد والمضر، غير مكترثين بالصالح والمفيد، لولا أننا لم نضع هذا الكتاب لذم الهيئة الحاضرة، وبيان معايبها ونقائصها، بل للإشارة إلى ما يجمل أن يتخذ قاعدة للهيئة الناشئة المقبلة التي نرجو أن تنشأ علي غير ما نشأت عليه هيئتنا الحاضرة من فساد التربية، واختلاط الآداب العائلية.

ومع ذلك فلسنا نجد مندوحة عن أن نشير هنا –ولو إلماعا– إلى آفة منتشرة في البيوت، وداء متفش بين العائلات الشرقية المتفرنجة، ونريد بذلك علة كل خراب: وهي المقامرة التي أصبحت لسوء الحظ في هذه الأيام صفة من صفات التمدن، فلا نكاد نزور عائلة، أو ندخل منزلا دون أن نجد لها أثرا.

ونحن إنما نشير في فصل الآداب العائلية إلى هذا الداء الوبيل؛ لأنه أكثر عللنا ضررا بآدابنا الاجتماعية، وأشدها تأثيرا في صفاتنا العائلية.

فالمقامرة –ونعيذ قراء هذا الكتاب منها– لا تنفذ سهمها في الجيوب

وتدس سمومها إلى الأكياس فقط، بل هي العلة الرئيسة في ضياع الآداب العائلية الشريفة، وفقدان العواطف المنزلية السامية، وحيثما حلت ضيفا ثقيلا، بل داء قتالا وبيلا انحلت معها عرى الأدب الشرقي مهما كانت وثيقة، وتزعزعت لها أركان التربية العائلية مهما كانت وطيدة.

وقد حدا بنا إلى ذكر هذا الأمر ما نراه في كل يوم رأي العين من تعاظم هذا المصاب، بحيث صرنا نخشى أن تعم العدوى، وأن لا يبقى سبيل إلى الخلاص. ولعمري أننا إذا نظرنا بعين البصيرة ومقلة النقد الخالص عن كل غاية وغرض إلى ما يجري في اجتماعات المقامرة في منازل العائلات، وكيف يسقط برقع الحياء الشرقي ويرتفع ستار الأنفة الذاتية والوقار الشخصي، وكيف يختلط الحابل بالنابل، ويمنع كل حديث أدبي، ويترك جانبا كل اهتمام بأمر العائلة وبنيها. لجزمنا دون مراء ولا جدال بأنه ليس في الإمكاه المحافظة علي الآداب العائلية الشريفة، والتربية البيتية المقدسة مع المحافظة علي هذه العادة السيئة القبيحة.

ولا شك في أن المتمسكين بالعادات التقليدية القديمة إمساكا شديدا يبلغ بهم إلى حد التعصب لها، والمغالين في تقليد حرية الأوروبيين وتمدنهم الحديث علي مغامزة، وكل غير صالح فيه مما لا ينطبق علي أخلاقنا ومشاربنا سوف ينظرون شزرا إلى هذا الفصل من هذا الكتاب، وربما أخذوا الكتاب برمته بذنب هذا الفصل، ولكن ماذا علينا إذا لم يرق في أعينهم أن نقول الحق، ولم يعجبهم أن نجهر بالصدق، فلهم شأنهم ولنا شأننا.

إنما نحن قد وقفنا القلم، وعقدنا النية علي خدمة الوطن الشريف، والتماس وجوه الإصلاح الحقيقي للأمة العربية، فليسمع من كانت له أذنان سامعتان.

هذا وقد رأينا قبل الخروج من الكلام علي العائلة والآداب العائلية إلى البحث في حالة المدارس وأمر المعلمين والتعليم –ولاسيما تعليم البنات– أن نردف هذه الفصول بفصل في "الوطن"؛ لأن الوطن ولا مراء هو العائلة الكبيرة المتألفة من مجموع العائلات الصغيرة، بحيث كان الكلام في هذا الشأن غير خارج عن المعني الذي نحن فيه، والله المسئول في تسديد خطواتنا إلى سبيل الرشاد، وجعل خدمتنا نافعة للأوطان بمنّه تعالى وكرمه.